



في سوريا وحدها دونا عن كل بلاد الله الواسعة يمكن أن تجد بين كل زقاق وحارة ثلاثة قادة، وعشرة حكام، وألف مدير، وإمبراطور واحد، ومثلهم في العدد مشاريع حكام وقادة، ليس بينهم من قد تُسول له نفسه أن يسمح لغيره أن يقوده أو من قد يفكر ولو للحظة أن الأمة قد تحتاج مثلاً لقائد واحد فقط، أو مؤسسة قيادة واحدة – لا سمح الله – وجيش من المنفذين والعمال والبناء حملة شعار (أي بني أنت اليوم أفضل مني).

نعم هذا ما يتناقله الناس اليوم وربما هذا ما يدور على لسان كثير من أرباب معارضتنا الحبيبة – ممن خانهم الحظ فليس لهم منصب أو جاه – ليصبح أحدهم: لا خير في هؤلاء – يقصد أعضاء المجلس الوطني السوري – كلهم يحبون المناصب، ويسعون لها، ويموتون في سبيلها، ولا يستغلون خبرات الناس مشيراً نحو صدره ضاحكاً ملي شدقية، مزهوأ بشخصه العجيب، رافعاً رأسه كأنه يضرينا منية، سأله بعدها: أبو فلان، سمعتُ أن هناك أماكن شاغرة في المجلس الوطني، وأن على الراغبين تسجيل أسماؤهم أو التواصل مع فلان ثم سكت. قال لي: والله؟ ثم أردف قائلاً: معك رقم تلفونه أخي؟ والله لا يجوز أن ترك هذه المؤسسات تُهمل هكذا علينا كُلنا أن نسد ونقارب، وهو يبقون إخواننا في الطريق الطويل نحو الحرية والكرامة – ولذعني بموعدة تجلجلت لها متاهات نفسي الضعيفة – ثم أخرج موبايله المودعين وسجل الرقم المطلوب، ودعني بابتسامة وذهب لحال سبيله، ومن ذلك الحين لم أسمع منه جديداً غير التصفيق.

هذه الإزدواجية في التفكير عند كثير من أبناء الوطن الواحد – خاصة أرباب الثقافة والفكر في سوريا – هي التي جعلتنا نحن طويلاً لنظام يُصَبّحنا كل يوم بأغنية (يا غالى يا ابن الغالى يا حبيب الملائين ... يلي جيبينك عالي ما بيعلى فوقو جبين)، ويُمسينا بأغنية (معك للأبد يا بشار الأسد) فأصابت عقولنا أمراض الديسك والصدأ المختلفة، وصرنا بحاجة ماسة لعملية جراحية تُغير مفهوم العمل الوطني، لقد وصلت المواصليل بمنتف امتنع عن ذكر اسمه لأسباب كثيرة، أن قال قوله التي هزت فيَ ما تبقى من حبي لهذا الوطن، قال وهو في غاية الإنزعاج مما يراه من الإنشقاقات في صفوف المعارضة وتشتت الرأي وتبعر الكلمة: نحن شعب لا يمكن أن يصلح حالنا عن طريق الديمقراطية والحرية، إن بشار الأسد يُعتبر الدواء الناجع للشعب السوري فبدونه سيفنى متناحرًا متخلفًا. انتهى كلامه وانتهت معه جميع وسائل المودة التي كنت أكُنها له، فلست أفهم كيف تصل بنا نظريات الانحناء الفكري لهذه الدرجة العجيبة من نزع الذات – لا جلد الذات – بـان تتمني لشعبك الذي قدم هذه التضحيات أن يعود لسيرته الأولى! لا أخفِكم أنَّ هذه الكلمات أوقفتني هنيهة أفكر في حال مثقفينا

الذين ينقسمون من وجهة نظري لثلاث فئات: فئة تفتات على التواطؤ، وفئة تفتات على المواقف، وفئة تفتات على الفئتين السابقتين - صدقوني لست بمحامل - ولكنني أحس اليوم أننا بحاجة لفئة رابعة أصبحت من الندرة إن فكرت في افتتاح متحف يحفظ لهم وجودهم وهبتهم المُغيبة. بتنا يا سادة ننتظر مهديهم لنقدسه ونحمله على الأكتاف الهرئة عله يصلح ما أفسدته العقول المنحنية. الفئة الرابعة التي أعنيها: هي تلكم الفتاة المخلصة التي تحرص على استمرار الفاجلة - رغم أنهم سكوا أسماعنا بهذه الفاجلة التي صارت حلاً زلاً لكل قطاع الطرق - واستكمال البنيان الذي كان مرصوصاً، أولئك الذين لا يقتلون من دماء الشهداء ولحوم الأطفال ما يرفعهم عند الناس درجة، ولا يزيد فوق مناصبهم الوهمية منصباً جديداً.

ويسائل الثائر المسكين لماذا تتعرّض معارضتنا؟ كلما مشت للأمام خطوتين كمشية ديك رومي متباخر تراجعت سبع خطوات للوراء؛ لماذا أشعر بأنها مهزوزة هرمة؟ وهل نستطيع فعلأً أن نتوحد؟ أقسم أن هذه الأسئلة لو قدمت لي في امتحان جامعي لوقعت على الحال ورقة رسوبى ثلاثة، فما رأيته وأراه من البعض من تخاذل وتقاعس عن أداء الواجب وحب شديد للرياسة والزعامة والقيادة مع كثير من العجب والآنا، ووضع الواقع في وجه أي مشروع وطني ولو شابتة بعض الشوائب، وفقه الكلام والفلسفة بعيداً عن الواقع والعمل، ليس هذا فحسب بل وصل الأمر ببعض الناس أن قضى أياماً وشهوراً يمير ويקיד لهذه المشاريع لأنه ما استطاع أن يتحمل رؤية - آخرين - يفعلون ما لم يتقن فعله. وعندما تراني على هذه الحال فاعلم أنى وربى لا أقصد التعميم ولا أحب من يفعل ذلك، ولكن غالب الأمر فصار ظاهرة يتكلم عنها الجميع، حتى وصل الأمر بوزيرة خارجية الولايات المتحدة أن طالب أولاً بتوحد المعارضة وفق مشروع جامع، ثم الحديث عن استحقاقات أخرى، وأنكر أننى لقيت مجموعة من الدبلوماسيين في السويد وبينما كنت أحاول أن آخذ منهم وعداً بتقديم ما يمكن تقديمها للثورة السورية، همس أحدهم في أذني قائلاً: يا صديقي ما لم تتوحدوا أولاً فلن يُجدِي حديثك العاطفي هذا. انتهى الكلام الرومانسي ما عاد يجدي نفعاً، ولا حتى مئات المقالات المدبجة.

ونعود مرة أخرى لنقرأ الواقع على طريقة المواطن المكلوم: لنصل لنتيجة حتمية وهي أن في عقل كل واحد منا شيطان الزعامة هذا والذي يُلْح علينا جميعاً بأن نأخذ فرصتنا - (أنا خير منه) - والذي يُخْيَل لكل واحد منا أن أي مشروع وطني - مهما كان صغيراً - لن ينجح أو يُكتب له التوفيق إلا إن كنتَ وكنتَ على رأس الهرم، ولست أدرى كم سيحتمل خوفو وأخوه من الرؤوس قبل أن يسقطوا مغشياً عليهم.

لكننا جميعاً وبعد هذا النقد الحاد سنعود في كل ليلة لتابع حصاد الجزيرة متقطعين حول شاشة التلفاز نبكي على حال وطني المسلوب، وكل واحد منا سيُقسّم على نفسه أنه خلاص لن تسول له نفسه إلا أن يكون جندياً مجاهلاً لأجل الله والوطن^[1] ، وتغار العيون من هذه اللحظات الرائعة، فتفرز الدموع الموالح، وتنتهي اللحظة الفارقة، ويستيقظ شيطان الزعامة ليوسوس من جديد فتستيقظ معه خلايا الأنماط في أممأاخنا ويعود الحفر والكيد، أو الانشقاق والانعتاق. وأنا كذلك سأضع قلمي هنا حيث لا نهاية كما هي العادة، لأكمل قراءة الكتاب المفید: كيف تصبح قائداً ناجحاً ومبدعاً لدليل كارنجي. والسلام.

المصادر:

[1] الصحيح أن يقول: لأجل الله ثم الوطن، فيعطى بحرف العطف ثم لأن العطف بها يفيد الترتيب، أما العطف بالواو ففائد التشريك، وهذا لا يجوز. (نور سوريا)